ISSN: 2706-6495

أثر التسوير في ضبط المفهوم القرآني (مقاربة سياقية كلمة "القرآن" أنموذجا)

The effect of versing in controlling the Quranic concept - a contextual approach, the word (the Koran) as a model

إعداد الدكتور/ غازي جاسم آل مشهد

دكتوراه النحو والصرف وعلم اللغة، جامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية

Email: ghazi.mashhad@hotmail.com

الملخص:

يمثل القرآن الكريم قداسة كبيرة لدى المسلمين، وقد تناوله الكثير من الباحثين بمناهج مختلفة بغية الوصول إلى معانيه، ومع أنهم بذلوا الكثير من الجهد، إلا أنهم مازالوا مختلفين في تفسيره، ويشكل هذا البحث أنموذجا مختلفا عما سبقه من البحوث، ويَفترِض تقديم منهج يقرّب آراء المفسرين ويقلص تنافرهم، وهو منهج تفسيري لم يُكتب فيه من قبل، وهو بعنوان "أثر التسوير في ضبط المفهوم القرآني-مقاربة سياقية، كلمة (القرآن) أنموذجا"، وقد تناولت فيه كلمة (القرآن) ضمن سور وسياقات مختلفة، وتتركز فكرة الدراسة على أن فهم أي كلمة أو أي آية، تنطلق من الحفاظ على حدود السورة وهو ما يُسمى (التسوير) إضافة إلى اعتماد السياق، وبذلك تفترض هذه الدراسة ألا يتم الاستعانة بما هو خارج عن السورة لفهمها، فلا ينبغي الاستعانة بأسباب النزول أو الأحاديث إلا مع التيقن من صحتها، كما لا ينبغي الاستفادة من السور الأخرى، إلا إذا كان سياق السور الأخرى متطابقا مع السورة المدروسة، وقدمت مجموعة من النماذج تركز على فهم كلمة (القرآن)، وعمدت إلى عرض الإشكاليات التي ترد على من يفسرها –غالبا- بأنها تعني كتاب الله كاملا من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، وقدمت التفسير الذي ينطلق من اعتماد السياق ضمن التسوير، وآمل أن يفتح هذا البحث المجال لدراسات كثيرة جدا لكتاب الله بشكل مختلف عما هو سائد، والحمد الله رب العالمين.

الكلمات المفتاحية: التسوير، المفهوم القرآني، مقاربة سياقية

ISSN: 2706-6495

The effect of versing in controlling the Quranic concept - a contextual approach, the word (the Koran) as a model

Abstract:

The Holy Qur'an represents a great sanctity for Muslims, and many researchers have dealt with it in different approaches in order to reach its meanings. Although they put in a lot of effort, they still differ in its interpretation. This research constitutes a different model from previous research .

It assumes that adopting a single approach brings the opinions of the interpreters closer together and reduces their discord. It is an interpretive approach that has not been written about before, and I hope that it will be a prelude to good dealing with the Book of God. It is titled "The Effect of Versing on Controlling the Qur'anic Concept - A Contextual Approach, The Word (Quran) as a Model", in which the word (Quran) is dealt with within different surahs and contexts, and the idea of the study is centered on understanding any word or any verse, stemming from preserving the boundaries of the surah It is called (the versing) .

In addition to adopting the context, and thus this study assumes that the use of what is outside the surah is not used in understanding it, so the reasons for revelation or hadiths should not be used except with certainty of their authenticity .

Also, the other surahs should not be used, unless the context of the other surahs is identical to the surah studied, and a set of models were presented focusing on understanding the word (the Qur'an). I intended to present the problems that come to those who interpret it - often - as meaning the entire book of God, from Surat Al-Fatihah to Surat Al-Nas .

I presented the interpretation that stems from the adoption of the context within the versing, and I see that the research is previous and not precedent, and it opens the way for very many studies of the Book of God in a different way than what is prevalent, and praise be to God, Lord of the Worlds.

Keywords: versing, the Qur'anic concept, a contextual approach

ISSN: 2706-6495

1. المقدمة:

تتناول اهتمامات العلماء كثيرا من قضايا القرآن، كأسباب النزول، ومكيّة السور أو مدنيّتها، وعدد آيات السورة، والقراءات القرآنية، ومسألة إعجاز القرآن، والبلاغة ورقي اللغة القرآنية، والكثير من مثل هذه القضايا، ولكن لم تحظ –على حد علمي- قضية التسوير، أي حدود السورة التي تعني البدء بالبسملة حتى انتهائها تمهيدا لبدء سورة أخرى، بجهد يُذكر بحيث تترتب على إثره معاني المفردات والتراكيب المختلفة للآيات، ولذا كان من المفيد التطرق إليها، وإذا كان هناك من تعرّض لهذه المسألة من جهة ما، فأظن أن ما يتم تقديمه في هذا البحث المختصر تطوير أو تنضيج لنظرية قلما يُكتب حولها، وآمل أن يكون هذا البحث مقدمة لأبحاث جديدة كثيرة جدا، وفتحا لأفق جديد في فهم كتاب الله سبحانه في المجال الفقهي والعقائدي وغير ذلك من المواضيع التي تندرج في هذا الكتاب العظيم، ولربما يكون فاتحةً لفهم كتاب الله عبر ضبط علمي يتمثل في التسوير والسياق، بشكل يزيل الكثير من الالتباسات التي وقع فيها بعض المختصين في تفسير كتاب الله سبحانه.

تعبّر كلمة (السورة) عن وجود حدود لا ينبغي تجاوزها، أي أن كل سورة منها، تمتاز عن غيرها بما تركز عليه من موضوع وإن كانت لها علاقة مع سورة أخرى من جهة ما، ويتسبب النظر إلى القرآن بصورة مفتوحة على بعضه دون الالتفات إلى استقلالية كل سورة، في إنتاج الكثير من الالتباسات ومن ثم الضبابية في فهم معنى الكثير من الآيات، ويمكن أن نرى بوضوح بعضا من الالتباس في تفسير كلمة تكررت كثيرا في المصحف الشريف، ألا وهي كلمة (القرآن)، حيث يفسرها أغلب المفسرين والمختصين في علوم كتاب الله على معنى واحد وهو هذا المصحف الذي يبدأ بسورة الفاتحة وينتهي بسورة الناس، كما هو حال الكثير من التفاسير.

إن إعطاء كلمة (القرآن) معنى واحدا كلما وردت، هو استبعاد لتلك الحدود التي تعني بكل سورة، حيث تبدأ بالبسملة حتى آخر السورة، باستثناء سورة التوبة حيث لا تبدأ بها.

يدعو إغفال (التسوير)، وفتح السورة على مدخلات الوحدات اللغوية الأخرى للسور المختلفة، إلى تعدد معاني الكلمة الواحدة واختلاف تفسيرها، ومع أن الاختلاف في المعارف شيء جيد، إلا أن الاختلاف في تفسير آيات القرآن الكريم إلى درجة أن يضيع المعنى الحقيقي، لأمر سلبي؛ لأن ذلك يجعلنا لا نفهم المعنى المراد، مما يعني ألا نفيد من كتاب الله بشكل كبير، فإبقاء الآيات في شكل غامض أو ملتبس المعنى، لا يحقق الغاية التي نزل الوحي من أجلها، فالوحي جاء ليفهم، فإن تسبب تفسير ما بإغماض المعنى والالتباس فيه، فلن تتحقق الغاية من نزوله.

1.1. هدف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى إرساء فكرة الإفادة من اقتران السياق بالتسوير، إذ أرى أن المتدبر في القرآن الكريم، عليه أن يحدد معاني الآيات ضمن السورة الخاصة بها، ولا يلجأ إلى آيات من سور أخرى إلا بعد التأكد من العلاقة الوثيقة بين آيات السورتين، ومن هنا فإن هذه الدراسة تدعو إلى تحديد فهم الآية ضمن سياق السورة الواحدة بالدرجة الأولى، كما أنها تستبعد صحة الأسلوب الذي يعتمد على تجميع آيات من سور مختلفة لأنها تحتوي على مفردة ما فحسب دون النظر إلى سياقاتها التي جاءت فيها.

2.1. منهج الدراسة:

استخدمت هذه الدراسة المنهج السياقي باعتماده على التسوير حيث يعمل على ضبط مفهوم الكلمة وفق سياقها لا أن يتم الاكتفاء بالبعد المعجمي للكلمة ولا أن يتم الاكتفاء بالمفهوم العام المجرد من السياق، بل هو منهج يعمل على ضبط المفهوم ضمن سياقه.

التمهيد:

يناسب أن نتعرّض باختصار إلى ثلاثة عناوين لها أهميتها في تبيين الفكرة الرئيسة لهذه الدراسة، وهذه العناوين هي: كلمة (القرآن)، والتسوير، والسياق.

1- المعنى كلمة (القرآن):

يأخذ القرآن صفة مقدسة عن المسلمين، واُختلف في كونه اسما جامدا أو مشتقا، فـ "قيل هو اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله... وقيل هو مشتق من قرنت الشيء بالشيء سمِّي به لقران السور والآيات والحروف فيه" (التهانوي، محمد علي، 1966م، ص1306)، ونخلص من هذا التعريف إلى أمرين؛ أما الأول فإن القرآن يمتاز على غيره من الكتب الأخرى بخصوصية عند المسلمين، فهو كتاب مقدّس معصوم لا خطأ فيه مطلقا، ويحتوي على إعجاز خاص مرتبط بإثبات صحة النبوّة والدين الإسلامي، و أما الثاني، فيوضح اقتران الكلمات والآيات والسور مع بعضها، ويناسب أن نذكر نقطة محورية في بحثنا، ألا وهي اقتران كل مجموعة من الكلمات والآيات ضمن سورة واحدة، أي أن كل سورةٍ قرآنٌ، وعندما نلاحظ اقتران السور في القرآن ككل، فإننا نجد قرائين مجموعة تسمى قرآنا، مع ملاحظة أنه يُقصد بالقرآن في كتب اللغة والتفاسير –على حد علمي- المصحف كاملا في كل مرة يُذكر فيها لفظة (القرآن)، ولذا فإن التأكيد على أنها قد تعني سورة يُعتبر إضافة معرفية جديدة يمكنها التأثير في فهم آخر لبعض الآيات بخلاف ما كان سائدا.

2- معنى التسوير.

السُّوْر "عند المنطقيين هو اللفظ الدال على كميّة الأفراد في القضايا الحمليّة كلفظ كل وبعض وعلى كميّة الأوضاع في القضايا الشرطية كلفظ كلما ومهما" (التهانوي، محمد علي، 1996م، ص989)، فالتسوير هو استعمال الفاظ محدودة كـ "كل" و"بعض" وغيرهما حيث هي ألفاظ تدل على كمية أفراد، واستعمال ألفاظ كـ "كلما" و"مهما" وغيرهما حيث إنها ألفاظ تدل على كمية أوضاع ضمن جمل يُحكم فيها بثبوت الاتصال بين قضيتين كقولنا:

كلما كان الأمل موجودا = فالحياة تستمر، أو النفي كقولنا:

ليس كذلك كلما كان الأمل موجودا = فالحياة تتوقف، وأي قضية تشتمل "على السور تُسمَّى مسوَّرة ومحصورة" (التهانوي، محمد علي، 1996م، ص 989)، ومع أن هذه المسألة مثارة بعض الشيء[1]، إلا أن هناك مسألة أخرى ترتبط بالسياق وليس بالمنطق، فالتسوير –هنا- يعني حدود السورة القرآنية، فالسورة "بالضم في الشرع بعض قرآن يشتمل على آي ذو فاتحة وخاتمة" (التهانوي، محمد علي، 1996م، ص 989)، ونلاحظ أن المؤلف يصف السورة بأنها بعض قرآن، وهذا هو الشائع، وأرى أنه قد يُطلق على السورة أو حتى بعض الآيات قرآنا.

3- السياق.

يشكِّل السياق مرتكزا رئيسا في فهم الخطاب وعناصره من كلمات وعبارات، فسياق أي وحدة لغوية كالكلمة أو الجملة هو المحيط اللغوي الذي تكون جزءا منه بل وجزء من المحيط غير اللغوي الذي تنتج فيه وهو ما يسمّى بالمقام[2]، فكلاهما محيط يسهم

[1] انظر: الفكيكي، محمود، 2021م، إشكالية التسوير في اللغة العربية، مجلة أوراق لسانية، العدد1، ص25 إلى52.

[2] انظر: شارودو، باتريك، ومنغنو، دومينيك، 2008م، معجم تحليل الخطاب، ص133.

في توضيح الوحدة اللغوية التي أُنتجت فيهما، فللسياق دور رئيس في "التأويل (بتوضيح بعض الالتباسات، فك التلميحات وقيم أخرى غير مباشرة)" (شارودو، باتريك، ومنغنو، دومينيك، 2008م، ص134)، فقد يُفهم من الوحدة اللغوية معاني مختلفة كما هو حال المعجم اللغوي الذي يقدِّم الكلمة الواحدة بمعان عديدة ويختلف بعضها عن الآخر، ولكنّ السياق يعمل على ضبط المعنى وتقليص المعاني العديدة إلى معنى واحد مناسب، ويمكن أن نذكر نوعين من السياق فيما يرتبط بالقرآن الكريم؛ أما الأول فهو السياق المحدد بالسورة الواحدة، وتسوير السور يشير إلى أنها ذات سياق محدد يبدأ بالبسملة وينتهي قبل البسملة في السورة الأخرى، وأما الثاني فهو السياق العام للقرآن بأكمله، وكل سياق يؤثر في ضبط المعنى، فسياق السورة يضبط المعنى داخل السورة، وعندما يبقى لبس في المعنى عند القارئ، فإنه قد يحتاج إلى السياق العام للقرآن ليتم ضبط المعنى وتحديده بشكل صحيح، ولكن ينبغي في هذا السياق الأخير، أن يكون متحدا في الموضوع، وقادرا على الإجابة عن التساؤلات التي في السورة الأخرى بشكل واضح لا لبس فيه ولا تأويل غامض .

- العلاقة بين التسوير وبين السياق.

يمثّل السياق مكونا من مكونات السورة، ويعمل على ضبط مفاهيم الوحدات اللغوية ضمن سور محدد، فيكون المعنى خاصا ضمن حيّز معين.

وتتضارب المفاهيم القرآنية حين لا يكون هناك ضبط من خلال السياق الداخل ضمن التسوير، ويمكن تفادي هذا التضارب بملاحظتهما، فإغفالهما يتسبب في ضياع المعنى للوحدة اللغوية التي يُراد فهمها، فمثلا كلمة (القرآن)، عندما تُقرأ في آية ما، ثم يُنظر لها على أنها تدل على معنى واحد في كل السياقات وفي كل السور، فسوف نقف أمام إشكالات كثيرة لا نجد لها حلا إلا بإرجاع كل كلمة إلى سياقها ضمن سورتها.

اقتضاء التسوير القرآني:

يقتضي التسوير القرآني وضع حدود للسورة (للنص المسوّر)، مما يعني أن يكون النص مغلقا، فلا تتداخل معه نصوص أخرى، سواء من خارج النصوص القرآنية كالأحاديث أو نصوص التأريخ كما في سبب النزول أحيانا، أو من نصوص القرآن نفسه أي من السور الأخرى، ومن هنا يُفترض ألا تُقحم أسباب النزول، والنصوص التاريخية من أجل فهم النص، بل يُفترض ألا يكون من تأثير للأحاديث أيضا، إلا أن تكون هذه الأحاديث مقطوعة الصدور كما هو كتاب الله سبحانه، ومما يقتضيه التسوير أيضا هو عدم التداخل بين السور إلا أن يكون الموضوع الذي تتكلم عنه السورة، هو الموضوع الذي تتكلم عنه السورة الأخرى.

كما يمكن أن يكون تسوير داخل تسوير، أي داخل السورة نفسها، وذلك بأن تتعدد السياقات، فكل سياق يعني وجود سور لبعض آيات السورة، ولذا نلاحظ تعدد المواضيع في كثير من السور، ومن ذلك ما جاء من مواضيع ضمن سياقات عديدة مختلفة في سورة البقرة، فمثلا نجد تسويرا خاصا متعلقا بأحكام شهر رمضان، وبعدها يتم إغلاق هذا الملف بقوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ والفرقان) (سورة البقرة: 185)، ومن هنا نلاحظ العلاقة بين السياق والتسوير، فقد تتكون السورة الواحدة من سياقات عديدة، وإذا تعدد السياق، تعدد التسوير، مما يعني أن السورة الواحدة قد تحتوي على أكثر من تسوير، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك تعدد القصص في السورة الواحدة، فتتعدد العناوين والمواضيع، وبما أن كل عنوان أو كل موضوع يكون ضمن سياق محدد، فإنه ينقطع ليبدأ سياق آخر، وهكذا جميع سياقات السورة الواحدة تكون ضمن إطار سياق واحد، وتصبح السورة إطارا عاما لها.

ISSN: 2706-6495

نماذج تطبيقية:

عندما يُغفل عن التسوير، فسوف نجد أن كثيرا من المفسرين يقعون في إشكالات ترتبط بضبط المفهوم لكلمة (القرآن)، فعادة ما يذهبون إلى أن هذه الكلمة تعني المصحف الشريف كاملا، وحينما يُذكر في آية ما فإنهم يقولون هذا توصيف للمصحف كاملا حتى أصبح هذا الأمر من المسلمات عند المفسرين والعلماء[3]، ويمكن أن نقدم مجموعة من النماذج ونناقشها، حتى نلاحظ ما يسببه إطلاق كلمة القرآن –غالبا- على المصحف كاملا، من إشكالات لا حل لها إلا تكلُّفا، وسنرى كيف يعالج السياق ضمن التسوير المخصص لكل سورة، حل تلك الإشكالات، وقد اخترنا مجموعة من النماذج مختلفة الجوانب، لتختلف جوانب معالجتها، فهناك تكرار كلمة (القرآن) في السورة الواحدة، وهناك ما أضمرت فيه الكلمة، وغير ذلك كما في النماذج التالية:

الإنموذج الأول: قوله تعالى:(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ والفرقان) (سورة البقرة: 185)، فمما جاء في تفسير الآية التالي:

(يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه) (ابن كثير، 2000م، ص238)[4]، ويتمثّل الإشكال في أن تفسير كلمة (القرآن) بالمصحف كاملا، قد يتعارض مع بداية السورة التي فيها (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ) (سورة البقرة: الآية 2)، فأمامنا كتاب وقرآن، أما الكتاب فهدى للمتقين، وأما القرآن فهدى للناس.

ويمكن الحكم على أن الكتاب أعم، والدليل هو أن الهداية للمتقين هداية للناس، فكل متق من الناس، وأما كون القرآن هاديا للناس فلا يعني بالضرورة هداية المتقين فليس كل الناس متقين، وقد جاء هذا الإشكال من النظر إلى الكتاب والقرآن على أنهما شيء واحد، فيُفترض أن يكون الكتاب مختلفا عن القرآن حتى يزول هذا الإشكال.

حل الإشكال: يمكن فهم الفرق بين الكتاب والقرآن ضمن السياق والتسوير لسورة البقرة، فالكتاب هو السورة كاملة، وهذا هو القدر المتيقن حتى عند المفسرين، فالكتاب يحتوي على سورة البقرة كاملة، وهذا منطقي، فالسورة بدأت بـ (الم) وأشير إليها بـ (ذلك الكتاب)، ومن هنا يمكن أن نطلق على سورة البقرة اسما آخر وهو الكتاب المسمّى بـ (الم)[5]حيث جاء ذلك ضمن الاحتمالات، وعلى هذا فالقرآن هو جزء من الكتاب، ويعني -هنا- مجموعة من الآيات تتناول أحكام شهر رمضان، وبعد الانتهاء من عرض الأحكام، قالت الآية: شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن، أي الذي نزلت فيه الأحكام المذكورة، والآيات هي:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (184) شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (185) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ

[3] انظر: أبو ناصر، جملات، لفظة القرآن في القرآن الكريم- دراسة موضوعية، 2011م.

[4] انظر: الزمخشري، أبو القاسم جار الله، الكشاف، 2009م، ص113، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، 1984م، ص168إلى 173، والطباطبائي، تفسير الميزان، 1997م، ج2، ص15.

[5] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، 1984م، ص206.

(186) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاس لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)

فهذه الآيات كلها قرآن ضمن كتاب سورة البقرة، وهي هداية للناس حتى ذوي المستويات المتدنية من التقوى، فقوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ) لا يعني بعظمة شأن القرآن أو شهر رمضان، بقدر ما هو إشارة إلى أن هذه الآيات والأحكام تُسمى قرآنا وهي نازلة في شهر رمضان أي أنها نازلة تتحدث عن أحكام خاصة به، وهو أسلوب مستعمل في اللغة العربية، فيُقال: نزلت آية في امرأة، أو نزلت آيات في معركة بدر، أو نزل قرآن في المنافقين، وأيضا نزل قرآن في شهر رمضان، والمعنى:

نزلت آية تتحدث عن امرأة، ونزلت آيات في شأن معركة بدر، ونزل قرآن (أي مجموعة من الآيات) في المنافقين، وأيضا نزل قرآن أو نزلت آيات تتحدث عن شهر رمضان[6]، فهذه الآيات هي أحكام يسميها الله سبحانه قرآنا، ومن هنا فإن ورود لفظة القرآن ضمن سياق محدد، يوضح أن الأحكام من صيام وإفطار هداية للعمل العبادي للناس حتى لو لم يكونوا على مستوى من التقوى، ومن هنا نصل إلى أن كلمة (القرآن) في هذه الآية لا تعني المصحف كاملا، بل تعني مجموعة من الآيات مرتبطة بأحكام خاصة بشهر رمضان.

الإنموذج الثاني: قال تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِر) (سورة القمر: 17).

لقد تكررت كلمة (القرآن) في سورة القمر أربع مرات، وفُسِّرَت بأنها القرآن كاملا، ومما جاء في تفسير ابن كثير قوله: "(ولقد يسرنا القرآن للذكر) أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس. كما قال: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب)، وقال تعالى: (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) [مريم : 97] .

قال مجاهد: (ولقد يسرنا القرآن للذكر) يعني: هونا قراءته.

وقال السدي يسرنا تلاوته على الألسن " (ابن كثير،2000م، ص1790)، ومما قال ابن عاشور: "لما كانت هذه النذارة بُلِغت بالقرآن والمشركون معرضون عن استماعه حارمين أنفسهم من فوائده ذُيّل خبرها بتنويه شأن القرآن بأنه من عند الله وأن الله يسّره وسَهله لتذكّر الخلق بما يحتاجونه من التذكير مما هو هدى وإرشاد" (1984م، ج27، ص ص187 و188).

ويتمثّل الإشكال في أن إطلاق صفة السهولة على جميع المصحف، يتعارض مع الكثير من الآيات التي تشكّل صعوبة على المفسرين ، وهذا ما أقروه في تفاسيرهم من وجود المتشابهات، ومنها الحروف المقطعة، فضلا عن عامة الناس، وقد ظهرت هذه الصعوبة في اختلاف المفسرين لكثير من الآيات، ولو كانت هذه الآيات المختلف فيها سهلة لما كان هذا الاختلاف، وقد نلاحظ الإشكال نفسه عند وقوفهم على تكرار الآية (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِر) أربع مرات، فقالوا أن المعنى هو سهولة المصحف، ولو كان الأمر كذلك، لكان المعنى موجودا في الآية الأولى، وتبقى الآيات الأخرى مجرد تكرار لا إضافة جديدة فيها، حيث يكفي أن تُقال الآية مرة واحدة، فمن المرة الأولى، نفهم أن القرآن (المصحف كاملا) ميسر للذكر، وقد يُقال أن التكرار يفيد

[6] انظر هذا الأسلوب في: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري، 2001م، ج11، ص ص 569 إلى 579.

ISSN: 2706-6495

التوكيد، ويؤخذ على هذا القول بأن التوكيد يفيد في كون الموضوع واحدا، وأما مورد الآيات فمختلف، فجاءت كل آية منها في موضوع مختلف.

حل الإشكالين: يُحل الإشكال الأول عبر تفسير الآية في حدود التسوير وضمن السياق الذي جاءت فيه. أما التسوير فيجعلنا ننظر إلى كلمة (القرآن) في حدود السورة، ويعني ذلك ألا نقحم المصحف كاملا في معنى التيسير إلا بدليل يدعو للقطع بهذا الأمر، وبذلك نستبعد أن نفسّر كلمة (القرآن) بأنه المصحف كاملا، وفي هذه الحدود يفيد السياق في تحديد المعنى، فالتسوير يفيد في استبعاد التعميم لمعنى الكلمة، كما يفيد السياق في تحديد المعنى، ومن هنا فإن التأمل في كل آية من الآيات الأربع، يفيد أن التيسير للقرآن مرتبط بنهاية حياة قوم عبر العذاب، ويمكن ملاحظة هذا الأمر كالتالي:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (17).

فالقرآن الميسّر كما جاء في الآية (17) يعني بالآيات من الآية (9) إلى الآية (16)، فقد ذكرت تكذيب قوم نوح (ع) وذكرت النتيجة، وهي صورة يسيرة وواضحة للعبرة والعظمة، وهذا المعنى سهل يسير لا يختلف في فهمه أحد حتى عامة الناس، ومن هنا فلا يرد الإشكال الذي ورد بأن القرآن كاملا ميسر، وهذا لا يرد على التوجيه بأن كلمة القرآن هي الآيات المحددة بتكذيب قصة نوح ونزول العذاب عليهم، كما أن تكرار الآية (ولقد يسرنا) ليس توكيدا، ففي كل مرة ترد فإنها تختص بقصة مختلفة، ولذا لو جاء أكثر من هذه القصص وكثر ذكر الآية، لما ورد الإشكال في تكرارها، ففي كل مرة ترد الآية فإنها تعني بخصوص قصة محددة.

الإنموذج الثالث: قوله تعالى (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ) (سورة الحجر: الآية 78).

لقد كثرت الآراء حول تفسير المثاني وإن كانوا متفقين على أن كلمة (القرآن) في السورة تعني المصحف كاملا، ولعله يناسب أن نعلّق على المثاني والقرآن؛ لأن المثاني مرتبطة بكلمة (القرآن) في هذه السورة، كما أنها محل اختلاف كبير بين المفسرين، وأرى أنّ تطبيق نظرية التسوير يفيد في حل هذا الاختلاف القائم، وأما التعليق على لفظ القرآن فلأنه محل الدراسة.

لقد تم تفسير المثاني والقرآن بعيدا عن السورة التي وردت الكلمتان فيها، أي أنه تفسير خارج عن السور الذي هو بناء السورة، فقد قرئت الآيات منها، ولكن تم تفسيرها بعيدا عنها، ومما قيل عن السبع المثاني:

"البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وبراءة...

عن ابن عباس، قال: المثاني: ما ثنى من القرآن، ألم تسمع لقول الله تعالى ذكره: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ" (الطبري، 2001م، ج14، ص ص 120 و 121)، وقيل إن القرآن كله مثاني[7]، فقد تعددت الآراء في معنى المثاني، وكلها خارجة عن إطار نظرية التسوير، حيث ذُكرت أمورٌ عديدة دون أن يتم ذكر سورة الحجر، فهو تفسير خارج السورة، وهي آراء متضاربة

[7] انظر: الطبري، تفسير الطبري، 2001م، ج14، ص 125.

ضمن دائرة الاحتمال، وعند التأمل في السورة جيدا، سنرى أن الكلام في المثاني يتركز داخل سورة الحجر، وأن المثاني فيها يعني عطف آياتها على بعضها للتبيين، وهذا معنى ما جاء في وصف القرآن بداية السورة حيث قال تعالى: (الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ) (سورة الحجر:الآية1)، فالآيات يبين بعضها بعضا، ويُلاحظ على السورة أنها ذات مواضيع محددة مستقلة من ناحية، وانعطاف آياتها على بعضها لتكون صورة السورة متكاملة من ناحية أخرى. إن الترابط في البيان وانعطاف بعضه على بعض، جعله راقيا في نسيجه اللغوي، وأنه تضمن لغة التهديد جنبا إلى جنب لغة اللطف والرحمة، ليكون ردعا للمستهزئين، ولذا جاء وصف السورة في آخرها بأنها قرآن عظيم، عطفا على بدايتها حيث كان استعراض حال المستهزئين، كما قال تعالى: (وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ) (سورة الحجر: آية: 87)، فبداية السورة مرتبط بآخرها، أو لنقل أن آخرها مثنّى على أولها، فمما جاء في بدايتها، الحديث عن عناد الكفار وينتهي عنادهم بدمارهم، وقد كانوا يطلبون الملائكة تحديا، واتهامهم للأنبياء بالجنون، ثم تبين الآيات أن قسوة قلوبهم نابعة من إجرامهم، فهو حصيلة ما تصنعه أيديهم، وقد جاء في آخر السورة ما يُثنّى على ما جاء في بدايتها، فقد ذُكر في آخرها مجيء الملائكة لقوم لوط، كما جاء ذكر عنادهم وعاقبتهم بالعذاب، ثم أنموذج آخر وهم أصحاب الأيكة المجرمين، وفي جانب آخر، تعلّق الآيات على موضوع الاستهزاء من قبل الكافرين، فالله كفى نبيه ذلك، وهكذا نلاحظ أن الآيات في نهاية السورة تُثنّى وتنعطف على بدايتها، فهي آيات مثاني منسجمة مع بعضها ضمن سياق ترتبط مكوناته ببعض، وكل ذلك في تسوير خاص بالسورة، وفي هذا الإطار أيضا، لاحظنا أن كلمة (القرآن) وردت مرتين في هذه السورة، أما المرّة الأولى، فكانت في سياق التبيين وإلقاء الحجج، فوُصف بأنه مبين، وفي آخر آيات السورة تم الوصف بأنه عظيم، حيث كان السياق خطابا للمستهزئين، فناسب تعظيم القرآن أمام استهزائهم استصغارا لهم، وهكذا نلاحظ أنه يمكن تفسير القرآن والمثاني في إطار التسوير الذي أحاط بالسورة، وأما الخروج على هذا التسوير، وتفسير كلمة (القرآن) بعيدا عن السياق الذي وردت فيه، فيحتاج إلى استدلال يؤكده لا أن يبقيه ضمن دائرة الاحتمالات، ونخلص من ذلك، أن المقصود من كلمة (القرآن) الواردتين في السورة، هو سورة الحجر تحديدا، وهو مبين إذا وردت آياته في معرض البيان، وهو عظيم إذا كان قبال استهزاء الكافرين.

الإنموذج الرابع: وردت كلمة (القرآن) في سورة الإسراء تسع مرات معرفة، ومنها مرتان في صورة النكرة، ويتضاعف الإشكال بإطلاق كلمة (القرآن) -في كل مرة- على المصحف كاملا، حيث يجيء ذلك في التفاسير عموما، ويبدو أن ذلك إقحام لمعنى (القرآن) في غير مكانه؛ إذ لم يكن تكرار الكلمة بالتفسير الشائع بين المفسرين إضافةً معرفية بين الآيات الأخرى، ويزول هذا الإشكال إذا ضبطنا المعنى لكلمة (القرآن) في كل مرة تُذكر، وفق نظرية التسوير وضمن السياق الخاص للسورة الواحدة، ويمكن استعراض معنى (القرآن) في سورة الإسراء كالتالي:

قال تعالى: (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) (الآية: 9).

جاءت هذه الآية في سياق واحد يمتد من الآية الأولى إلى الآية الثانية والعشرين، وهو سياق عبارة عن إنموذج يتحدّث عن بني إسرائيل وعن انقسامهم إلى مؤمنين يُبشرون، وغير مؤمنين يُتوعدون.

كما ذُكرت كلمة القرآن في قوله تعالى: (وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورا) (الآية: 41)، وقد جاءت هذا الآية نهاية سياق بدأ من الآية الثالثة والعشرين، ويمكن ملاحظة أن هذا القرآن عبارة عن آيات تتناول مجموعة من الأخلاق والأحكام، ثم يأتي سياق آخر قرآنا، وهو سياق التسبيح لله وتنزيهه في قوله تعالى: (وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا

يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابا مَّسۡتُورا) (الآية: 45)، وإذا كان الكافرون لا يفقهون حقيقة التسبيح ولا يستجيبون له، فإنهم يولون مدبرين وينفرون من هذا القرآن الذي يعني التسبيح والتنزيه لله.

ثم ترد كلمة (القرآن) أيضا في قوله تعالى: (وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَة لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنا كَبِيرا) (الآية: 60)، ونلاحظ أن الشجر الحقيقي لا يُلعن، ولكن يجري الأمر على من يتم تكليفه فيخالف الأوامر، ويرتبط هذا بالإنسان، فحين يخالف أوامر الله عنادا وطغيانا وحين يرى آيات الله ويجحدها يكون مستحقا للّعن، وقد وجدنا أن هذه الشجرة هي "ثمود"، فالقرآن هنا هو قوله تعالى: (وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابا شَدِيداۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورا وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَة فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفا) (الآيتان: 58و59)، فثمود هي الشجرة الملعونة في هذا القرآن أي في هاتين الآيتين تحديدا، حيث يقتضي السياق ذلك، وإذا جاء في الآية (59) أنه ما تُرسل الآيات إلا تخويفا، فإن في الآية (60) التي ذكرت القرآن الذي يعني الآيتين السابقتين لها، إشارة واضحة بارتباط الآيات مع بعضها في سياق منسجم مع بعضه بشكل محكم حيث جاء فيها (وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ).

ووردت كلمة (القرآن) في قوله تعالى: (أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودا) (الآية: 78)، وقد ذهب المفسرون إلى ما يؤيد النظرية التي نعتمدها، حيث لم توجّه كلمة (القرآن) إلى المصحف بأكمله، وإنما تركز في معنى واحد وهو الصلاة، فـ (قرآن الفجر) يعني صلاة الفجر[8].

وجاءت أيضا كلمة (القرآن) في سياق مختلف، حيث قال تعالى:(وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآء وَرَحۡمَة لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارا) (الآية:82)، وهو سياق يتركز على مسألتين مهمتين، وهما الشفاء الروحي والرحمة الاجتماعية التي تضفي الأمان الاجتماعي على الناس، فيتمثل الشفاء في معالجة الكفر، وهو ما نجده في آيات التخويف والموعظة كما جرى على الشجرة الملعونة (ثمود)، وتتمثّل الرحمة فيما نجده من النظم الاجتماعية المرتبطة بتسبيح الله وتنزيهه وتوحيده، حيث عبادة الله والإحسان للوالدين، فقد قال تعالى:(وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلا كَرِيما وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرا) (الآيتان: 23و24)، وما بعدهما من إتيان ذي القربى حقه، وعدم التبذير، ويستمر ما يضفي الرحمة على الناس إلى قوله تعالى:(ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰها ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوما مَّدۡحُورًا) (الآية: 39)، وهذه الآية تتويج للتنظير الاجتماعي الذي يركز على الأساس الصحيح لانتشار الرحمة بين الناس، وأما ما يتعلق بالشفاء الروحي فنلاحظه من قوله تعالى:(أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيما) (الآية:40) وحتى الآية الثانية والثمانين، فهي آيات عبارة عن معالجة وشفاء من النفاق والكفر، وهذه مسألة ترتبط بالراحة النفسية وتقتل الفراغ الروحي، فمن دون الإيمان بالإله القادر الذي جعل الآخرة مكملة لحياة الدنيا فسوف يشعر بفراغ داخلي في نفسه وقد يتعرض لنوبات من القلق والاكتئاب، وهكذا توجت الآية الأخيرة من هذا القرآن _أعني الآية من 40 إلى 82_ وهي قوله تعالى:(وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآء وَرَحۡمَة لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارا) (الآية: 82).

[8] انظر: الطبري، تفسير الطبري، 2001م، ج15، ص35.

ثم تأتي كلمة (القرآن) في صورة التحدّي، حيث يقول تعالى:(قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الآية:88)، ونجد أن التفاسير تعود مرة أخرى لتفسير الآية بعيدا عن السياق وخارجا عن التسوير الذي حددته السورة، ومن هنا يتركز الإشكال بتفسير كلمة (القرآن) على أنها المصحف بأكمله من جهة، وبتركيز التحدي على البعد اللغوي من جهة أخرى، ويتشعب الإشكال إلى نقاط عديدة، وكل نقطة تمثل عقبة أمام فهم معنى التحدي اللغوي، فمثلا، عندما يكون التحدي لغويا، ستتضاءل مساحة التحدي من جميع الإنس والجن إلى اقتصاره على مجموعة بشرية دون أخرى مع ملاحظة أن التحدي يشمل الجميع، أي جميع الإنس والجن، ومع افتراض أن المقصود هو الأغلبية من الجن والإنس، فإن كان التحدي لغويا، فسوف نجد كثيرا جدا من غير المسلمين يتقنون الفنون اللغوية العربية دون أن يتأثروا ببلاغة القرآن، كما نجد أن كثيرا من العرب لا يتقنون فنون اللغة العربية، وبالتالي لن يكون القرآن أمامهم معجزا، وأيضا نجد أن من لا يتكلمون العربية من المسلمين وغيرهم هم أكثر من العرب، فهذه الأمور تقف عائقا أمام كون التحدي عالميا وصالحا لكل زمان ومكان، حيث لا يناسب أن يكون التحدي مع من لا يعرف اللغة العربية فضلا عمن لا يتقنها ويعرف أسرارها، كما أنه من غير المناسب أن يُلصق التحدي بالبعد اللغوي دون أن يقول الله ذلك صراحة أو أن يكون السياق متكلما عن البلاغة والنحو والجوانب الفنية في اللغة، والحال هو أن السياق لا يذكر البعد اللغوي إطلاقا، بل يتناول مسألة الشفاء من الكفر والنفاق من جانب، والرحمة الاجتماعية من جانب آخر، ويمكن أن نزيل الإشكال عبر ضبط معنى كلمة (القرآن) عبر سياقها وسورها، حيث تتحدد ببعض الآيات من السورة، فيتركز التحدّي في نقطة بعيدة كل البعد عما قيل بأنه إعجاز لغوي، فالسياق يفرض أن يكون التحدي هو إتيان مثل هذه النظم والأحكام التي هي شفاء لما في الصدور من النفاق والشك والكفر بالله سبحانه التي تكون سببا في فراغ الروح والتعب النفسي من ناحية، وإرساء مبادئ الرحمة عبر العبادات من الالتزام بالواجب والابتعاد عن المحرمات، فضلا عن الأخلاق كالتواضع التي تسهم في نشر الرحمة بين الناس، ويكمن التحدّي في اتجاهين؛ أما الاتجاه الأول فهو اجتماع جميع الإنس والجن الكافرين، ونجزم بأنهم لا يمكن أن يقدموا إنموذجا من النظم والمعاملات التي تشفي الصدور وتنشر الرحمة، فاتجاههم أتجاه دنيوي مادي، فلا توحيد لله عندهم، مما يعني انتفاء أو نقص ما يرتبط بالجانب الروحي من توحيد الله واليوم الآخر، وهو مما يكون سببا للقلق أو نقص الطمأنينة، ولذلك فقد يتجاوز هؤلاء حدودهم عندما يرون إشباع رغباتهم في الإلحاد التحرر من الالتزام الذي يأمرهم وينهاهم بما يرغبون بالالتزام به، مما يعني اضطراب المجتمع الذي قد يخلو من النظم التي تُرسي الرحمة وتنشرها بين الناس، وأما الاتجاه الثاني، فهو اجتماع الإنس والجن من المسلمين، فهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذه النظم؛ حيث لا يستطيعون ابتكار ما يكفل الشفاء والرحمة بغير ما جاء به هذا القرآن، فإن أرادوا الشفاء والرحمة، فلا مناص لهم من الرجوع إليه، وهذا التحدي مُتاح للجميع، أي متاح لأصحاب الثقافات المتعددة، واللغات المختلفة، ولأصحاب الدرجات العلمية المختلفة، ولجميع التخصصات، ولجميع البشرية مسلمين وغير مسلمين على اختلاف توجهاتهم العقدية، وهكذا بالنسبة للجن، حيث يمكنهم أن يجتمعوا ويتحاوروا حول هذا الموضوع دون أن تكون اللغة عائقا، فشفاء الصدور وانتشار الرحمة الاجتماعية أمران يرتبطان بكل البشرية، ويمكن لهم أن يتحدثوا حول هذا الأمر حتى الملحدين، فهو تحد شامل للجميع، ويمتد عبر العصور، وهذا ما لا يمكنه أن يتحقق فيما لو كان الإعجاز لغويا، بل ولا يمكن أن يكون التحدي لغويا لأناس لا يعرفون اللغة العربية أصلا، والادعاء أن التحدي لغوي، يحجم عظمة القرآن، حيث الكثير لا يعرف اللغة ولا يتقن فنونها.

وقد ذكرت كلمة (القرآن) للمرة الأخيرة في قوله تعالى:(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (الآية:89)، وهي تعني ما جاء من الآيات للشفاء والرحمة، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى:(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ

لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورا) (الآية: 41)، أي إلى قلة من يتبع هذه الأخلاقيات، كما أشار قوله تعالى:(وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابا مَّسۡتُورا) (الآية: 45)، وفي هذه الآية ما يتعلّق بالإيمان بالله وتوحيده، أي ما يتعلّق بالشفاء، ولكن أكثر الناس المعاندين لا يؤمنون ولا يعني عموم الناس.

الإنموذج الخامس: قوله تعالى: (إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ) (سورة القدر: 1).

يختلف هذا الإنموذج عن سابقيه بأنه لا توجد كلمة (القرآن)، ولقد جاء في التفاسير أن الضمير يعود على القرآن أي المصحف كاملا، فذكر ابن عاشور:

(أغراضها: التنويه بفضل القرآن وعظمته بإسناد إنزاله إلى الله تعالى...

والرد على الذين جحدوا أن يكون القرآن منزلا من الله تعالى.

ورفع شأن الوقت الذي أنزل فيه ونزول الملائكة في ليلة إنزاله) (ج30، 1984م، ص455)، ومضى المفسرون على هذا الرأي، وقد أرجعوا الضمير إلى القرآن، ويرد على هذا التفسير الإشكال التالي:

لا يوجد دليل قاطع على أن المقصود هو القرآن، ولا توجد علامة مؤكدة في الضمير في (أنزلناه) على أن المقصود هو القرآن الكريم أي المصحف الشريف بأجمعه، ويبقى ما ذكره المفسرون في دائرة الاحتمال وليس القطع، ويبدو أن سبب هذا الرأي هو تجاوز مسألة التسوير، ويقوّي هذا الإشكال، خلوّ السورة من ذكر القرآن والحديث عنه بعد كلمة (أنزلناه)، فإذا كان الضمير (الهاء) يعود على المصحف كاملا، وأن الضمير(إنا) إضافة إلى (نا الفاعلين) دلالة على تعظيم القرآن بأكمله، فلم اختفى الحديث عن ذكره –أي ذكر القرآن- ولو بالإشارة؟ فالتعظيم لشيء يناسب أنه مقدمة للحديث عنه، وما نجده هو مجيء الحديث عن شيء مختلف تماما وهو الحديث عن ليلة القدر.

مناقشة الإشكال:

يبدو القول بأن معنى الآية (إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ)، هو أنّ وقت نزول القرآن هو ليلة القدر، ليس واردا، فالآية تتكلم عن معنى مختلف تماما، حيث يكون المعنى للآية هو:

إنا أنزلنا هذا الكتاب وهو سورة القدر الذي يبدأ بالبسملة وينتهي بـ(سلام هي حتى مطلع الفجر)، يتحدث عن ليلة مهمة في حياة كل إنسان وهي ليلة القدر، وبعبارة أخرى: المعنى هو: إنا أنزلنا هذه السورة مختصة في الحديث عن ليلة القدر، وبعبارة ثالثة: إنا أنزلنا كتابا اسمه (سورة القدر) ليتحدث عن ليلة القدر، أي أنّ سورة القدر كتاب ،كبقية السور عبارة عن كتب مطهرة، وإذا كانت كل سورة تنزل في مواضيع محددة، فإن سورة القدر نزلت تتحدث عن موضوع ليلة القدر، ويمكن إسناد هذه الفكرة عبر النقاط التالية:

النقطة الأولى: ما ذهبنا إليه من توجيه لا يدعي شيئا خارجا عن السورة فهو ضمن تسويرها، وكما أنه ليس في السورة ذكر للقرآن، فإننا لاحظنا الاختصاص فيها عن ليلة القدر وفضلها فقط.

النقطة الثانية: لا يرد الإشكال المتقدم على الرأي الذي نتبناه، فالإشكال هو أن السورة بدأت بتعظيم شأن نزول القرآن، ثم يختفي الحديث عن القرآن فجأة بعد الضمير في كلمة (أنزلناه) حيث قيل إنه القرآن، وعدم ورود الإشكال نابع من أن آيات السورة

تتمحور حول ليلة القدر وما يدور فيها، وليس الكلام متعلقا بالمصحف الشريف وفي المقابل لا نجد آية في سورة القدر أو بعض آية منها ولو إشارة تتحدث عن القرآن.

النقطة الثالثة: قد يُقال: مادام أن الضمير يعود على السورة عينها، فلم لمْ يكن الضمير للمؤنث بحيث يُقال (أنزلناها)، ويُردُّ على ذلك، بأنه يمكن أن يُطلق على السورة كتابا، أو قرآنا، فالسورة كتاب يبدأ بالبسملة، وهذا من أساليب العرب المسلمين حيث يقولون عن الرسائل (كتبا)، وغالبا تبدأ بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، فصح اعتبار الضمير (الهاء) مختصا بالكتاب الذي هو سورة القدر، ولم يكن من الضروري أن يكون الضمير مؤنثا ليختص بالسورة.

النقطة الرابعة: قد ذكرنا، أن بضع آيات قد تنزل في شأن ما، فيقال: نزل في هذا الشأن قرآن،كأن يقُال: نزل في الصيام قرآن، ونزل في المنافقين قرآن، ونزل في القارعة قرآن، ونزل في ليلة القدر قرآن، فيكون المعنى: نزلت آيات تتحدث عن الصيام، ونزلت آيات تتحدث عن المنافقين، ونزلت آيات تتحدث عن القارعة، ونزلت آيات تتحدث عن ليلة القدر، فيكون هذا هو المعنى ببساطة.

النقطة الخامسة: لغة التنزيل والإنزال لغة قرآنية مستفيضة في كتاب الله، فكثيرا ما تبدأ السور بذكر النزول والتنزيل لما يسميه الوحي بالكتاب مرة، أو سورة مرة أخرى، أو حتى قرآنا، فإذا ذكر النزول أو التنزيل، فإنه كثيرا ما يعني السورة الخاصة التي تتلى بعد البسملة مباشرة، ومن أمثلة ذلك:

المثال الأول:

بداية سورة النور: سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1)

وهي شبيهة بسورة القدر، ولو قاربنا البداية في السورتين، لرأينا ذلك كالتالي: فعلى افتراض أن السورة كتاب، يمكن القول بتعبيرنا العادي:

إنا أنزلناه وفرضناه، أو بالنظر إلى كونها سورة، ستكون: إنا أنزلناها وفرضناها... والفارق بين السورتين، أن هذه السورة، صرحت أن هذا الكتاب سورة، وأما سورة القدر، فقد أضمرت، أي، بدلا أن تصرح باسم كون هذه الآيات سورة أو كتاب، اكتفت بالضمير، وقالت (أنزلناه).

المثال الثاني:

بداية سورة السجدة:

الٓمٓ (1) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (2)

ونلاحظ في بداية هذه السورة، العادةَ في كتابة كلمة الإنزال أو التنزيل وما يشبههما، من مفردات النزول.

فالكتاب هنا هو سورة السجدة، بدأ بذكر التنزيل، وهذا ما جرى مع سورة القدر، حيث بدأت بـ (أنزلناه).

المثال الثالث:

جاء في سورة إبراهيم قوله تعالى:

(الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ)

تختص كلمة (النزول) في هذه السورة بهذا الكتاب الذي يسمى بسورة إبراهيم، وليس يعني كل المصحف، فكل سورة لها هدفها، وهذه السورة خاصة بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك عبر الآيات التي ذكرها الكتاب، أو ما يسمى بسورة

إبراهيم، وهذا ما لا نجده في كل سورة، فالسور الأخرى لها أبعاد أخرى مختلفة، فتلك السورة تنزل في التوحيد، وتلك تنزل في الصيام، وتلك تنزل في الصلاة، وتلك تنزل فيما يجري في ليلة القدر.

المثال الرابع:

جاء في سورة يوسف قوله تعالى:

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (1) إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (2)

نلاحظ أن الذي أُنزل هو (الر)، وهو (آيات الكتاب المبين)، ثم تقول الآية (إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّا)، أي أنزلنا هذا الكتاب، أي أنزلنا هذه السورة، وهذا كما في سورة القدر، ونلاحظ الآية الثانية، أنها تصف المنزول بأنه قرآن، وهذا مالم تذكره سورة القدر حيث الإضمار فيها، ويبقى الأمر المشترك في السورتين، أن الذي أُنزل هنا كتاب، وما أنزل هناك كتاب، والفرق في اسميهما فحسب، فذاك كتاب اسمه سورة يوسف، وهذا كتاب اسمه سورة القدر.

الخاتمة:

لقد تناول بعض الباحثين نظرية التسوير، وكان تناولها من الجانب المنطقي، وهي تختص بعبارات داخل النص وبالتحديد فإن التسوير جانب تركيبي، وتم تناول هذه النظرية من جانب مختلف تماما، حتى يمكن القول باختلاف الجانبين كليا، وكان الأخير مهتما بكتاب الله، وأن التسوير يعني أن السورة محددة وهي ذات رقم بين السور، وكان الاعتناء بالشكل أكثر منه بمعاني الآيات، فكأن المهم معرفة عدد السور وترتيبها في المصحف، ولم يمنع التسوير من إقحام ما هو خارج السورة بها، وجاءت هذه الدراسة المختصرة بشكل مختلف تماما عما سبق من الدراسات في النظرية التسويرية القرآنية.

كانت طبيعة تناول هذه النظرية أن تكون موجهة لفهم المعنى، حيث عمدنا إلى اعتماد التسوير وما يقتضي من إبعاد ما يكون خارجا من الخطاب القرآني بل وحتى من خطاب السور الأخرى مع إمكانية الإفادة من خارج القرآن إن كان متواترا بين المسلمين، وكذا الإفادة من السور القرآنية الأخرى إذا اتحدت السياقات فيما بينها، وقد لاحظنا فاعلية السياق المؤطر بالتسوير، في ضبط المعنى، إذ نجح في حل الإشكالات التي كانت ترد على تفاسير بعض الآيات عندما كان المفسرون يفتحون آيات السور على بعضها فضلا عن إقحام أسباب النزول وبعض الروايات الضعيفة ، دون الأخذ بالحسبان بنظرية التسوير وما يفيده السياق الذي جاءت فيه تلك الآيات، وأرى أن هذا الباب واسع، وفيه إمكانية كبيرة في توليد المعرفة من الآيات القرآنية، كما أنه يسهم في إيجاد حل لكثير من الإشكالات المتمثلة على شكل اختلافات في التفسير، ففي ظني أن الحل يبدأ باعتماد السياق داخل السورة دون أن يخرج عنها، وبإبعاد المظنونات من الخطابات غير القرآنية عن الخطابات القرآنية، مع إمكانية الإفادة من الخطابات المتواترة، كالأحاديث الصحيحة المتواترة بحيث لا خلاف فيها بين المسلمين.

وأخيرا، لعل هذه الدراسة تكون خطوة إلى دراسات كثيرة على غرارها، بحيث تتناول مباحث قرآنية مختلفة وفق سياق الآيات المؤطر بالنظرية التسويرية، والحمد لله رب العالمين.

د. غازي جاسم آل مشهد

ISSN: 2706-6495

قائمة المراجع والمصادر:

- القرآن الكريم.

1- ابن عاشور، محمد الطاهر، (1984م). تفسير التحرير والتنوير، ج1، ج27، ج30،الدار التونسية للنشر.

2- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، (2000م). تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، الطبعة الأولى.

3-أبو ناصر، جملات، (2011م). لفظة القرآن في القرآن الكريم- دراسة موضوعية، الجامعة الإسلامية – غزة.

4- التهانوي، محمد علي، (1966م). كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، رفيق العجم - علي دحروج، الناشر: مكتبة لبنان، الطبعة الأولى.

5-الزمخشري، أبو القاسم جار الله، (2009م). تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: خليل مأمون شيحا، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة.

6-شارودو، باتريك، ومنغنو، دومينيك، (2008م). معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس.

7- الطباطبائي، السيد محمد حسين، (1997م). الميزان في تفسير القرآن ج2، صححه وأشرف على طباعته: الشيخ حسين الأعلمي، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

8- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (2001م). تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، عبد السند حسن يمامة،ج11، ج14، ج15، الدار: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، مصر ، القاهرة، الطبعة الأولى.

9- الفكيكي، محمود، (2021م). إشكالية التسوير في اللغة العربية، مجلة أوراق لسانية، العدد1.

جميع الحقوق محفوظة © 2023، الدكتور/ غازي جاسم آل مشهد، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي

(CC BY NC)

Doi: https://doi.org/10.52132/Ajrsp/v5.53.2